٩ .... فِقهُ العَمَل الجَمَاعِيّ في صياغته الحديثة

نكبتان كبيرتان حدثتا في تاريخ الاسلام ، أتعبتا عموم المسلمين ، ولمدى أجيال ، بخلاف نكبات صغيرة محدودة الأثر كثيرة .

النكبة الأولى : أحدثها هولاكو ، وبلغت ذروتها باحتلاله بغداد عاصمة الاسلام .

والناظر لهذه النكبة يجد انها ما كانت بدعة عما يصيب الأمم في فترات ضعفها ، وتوقعها الكثير من العلماء ، وحذروا الأمة وأولي الأمر من وقوعها قبل سنين طويلة من السنة التي وقعت فيها ، وهي سنة ٦٥٦ هـ ، لما رأوه من تردي أحوال العامة في عقيدتها وأخلاقها ، وبعد جهاز الدولة عن الجد والتجرد ، وضعف هيمنة الخلفاء ، وعزوف جمهور العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتهائهم بالجدل والمناظرات

الجافة الموغرة للصدور [1] .

وقد حاول بعض متأخري الخلفاء اصلاح الأحوال بنظام الفتوة الذي حرف به سيرة كثير من العامة الى سيرة شبه عسكرية ، الا أن اصلاحه كان مخروقا ، لأنه لم يعتمد العقيدة أساسا تربويا لنظامه ، فتحول النظام الى نوع من اللهو .

وهذا هو الذي يفسر لنا ذلك الذهول الذي أصاب معظم الأمة بعد تلك النكبة ، وحيرتهم ، ولولا ان أتاح الله للأمة الامام ابن تيمية ، بما أعاده من الثقة ، وأوضحه من فقه العمل ، لكان الذهول أطول ، الا أن بعض أصحاب القلوب الحية من العلماء كانوا أسرع الى فهم كلام ابن تيمية ، فعاونوه ، أو نسجوا على منواله ، ورتقوا بعض الخرق الكبير .

ومع ذلك ، فيجب أن لا نبالغ في تصوير أثر الاستدراك الذي قام بـــه ابن تيمية وصحبه ، فانه كان محدود الأثر ، واستمرت أحوال العامة في التردي ، واستمرت تجزئة العالم الاسلامي الى دويلات صغيرة متنازعة ضعيفة .

وبعد قرون من نكبة بغداد، استطاعت الدولة العثمانية في عصرها الأوسط ، وبمجيء بعض السلاطين الأقوياء الذين تمكنوا من توسيع رقعتها ، أن ترث هيبة العباسيين ، وتعيد الى الأذهان

---

(١) أشار الغزالي في مواضع من الاحياء الى مثل هذه الظواهر ، وكتب فيها الندوي خلال كتابه (رجال الفكر والدعوة في الاسلام) في طبعته الثانية ، ولأكرم العمري بحث في أخلاق العامة آنذاك نشره في مجلة كلية الدراسات الاسلامية ببغداد .

معنى الخلافة الأقرب الى سمتها الأول الذي عهده المسلمون في أواسط الخلافة العباسية ، ان لم نقل : سمتها الأقدم من ذلك ، واستمرت الدولة العثمانية حتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد رحمه الله جديرة بأن يوصف حكمها بأنه حكم اسلامي ، على عيوب كثيرة ، ونقص في تطبيق بعض الأحكام الشرعية في آخر عهدها ، وعلى ظلم من بعض الولاة الذين أساء السلاطين اختيارهم أحيانا . ولا يقول بخلاف قولنا هذا الا متأثـــر بتزييف حقائق التاريخ الحديث ، ذلك التزييف الذي قامت به المجامع الاستشراقية والدوائر التبشيرية ، واستخدمت فيـــه عملاءها من الكتاب أو ضحاياها من الذين تقمصهم نوع من التطرف القومي العربي .

وأما النكبة الثانية : فاحتلال الجيوش الانكليزية والفرنسية لبلاد الاسلام في الحرب العالمية الأولى ، وقضاؤهم على آخر صورة يمكن أن تسمى بأنها اسلامية كما قلنا ممثلة في الحكـــم العثماني أو بعبارة أدق : قضاؤهم على أي احتمال قريب لتقويم انحراف الحكم العثماني عن الاسلام ، حين حرف حزب الاتحاد والترقي بانقلابه على عبد الحميد ، قوانين شرعية كثيرة ، وحرف مناهج التربية ، وأشاع الطورانية ، أي القومية التركية ، ورضي السذج من أركان ذلك الحزب تدخل الأيادي اليهودية والماسونية في الحزب وسياسة الدولة .

وكما جعل هولاكو احتلال بغداد هدفا معنويا مهماً أراد به كسر معنويات عموم الأمة الاسلامية ، فكذلك جعل الحلفاء ،

أو الانكليز بالتحديد، أو تشرشل نفسه، احتلال بغداد والقدس هدفا معنويا ، مع التركيز على احتلال بغداد بالذات لكسر معنويات الأمة ، واعادة احتلال هولاكو لها الى الأذهان ، كما كشفت عن ذلك البرقيات المتبادلة بين قائد الحملة الانكليزية لاحتلال العراق خلال الحرب العالمية الأولى ، وبين وزارة المستعمرات [1] .

* * *

وبرزوح البلاد الاسلامية تحت حكم الجيوش الاستعمارية ، أو تحت حكم المماليك الذين نصبوهم ووجوههم من وراء ستار ، عادت الجاهلية الى أرض البلاد الاسلامية ، وضربت أطنابها ، وتمكنت من قيادة المؤسسات السياسية، والأجهزة التربوية ، والبيوت التجارية والمالية ، واستطاعت بذلك من دخول القلوب بالترغيب والترهيب .

وبعودة الجاهلية ، عادت الحاجة الى من يجاهدها ويعيد حكم الاسلام .

● مبادرة عاكستها الظروف

وحين أذهلت المخلصين بدعة الانحراف الضخمة التي جاء بها حزب الاتحاد والترقي حاول بعض السذج منهم مناهضتها فورا ، ففشلوا ، في قصص مشهورة ، الا أن المحاولة الواعية جاءت بعد سنين من بغداد ، على يد رجل من كبار العسكريين

---

(٢) كتاب (حرب العراق ١٩١٤ - ١٩١٨) لشكري محمود نديم .

أيام عبد الحميد ، ويعرفه العراقيون بالنبل والتقوى والشجاعة ، ذلكم هو (محمد فاضل باشا الداغستاني) رحمه الله ، اذ انه أسس مع بعض خيار من أعيان بغداد من آل الخطيب وغيرهم ما سموه بـ (الحزب الاسلامي) سرا ، ونص منهاجهم على مناهضة حكم الاتحاديين ، واعادة الحكم الى سمت اسلامي شرعي واضح على نحو ما كان سابقا [١] .

كانت مبادرتهم هذه سنة ١٩١٣ .

ولذلك أجبرتهم ظروف الحرب العالمية على التريث والالتهاء بصد الخطر العام الذي دهم الأمة ، ثم مات البطل الداغستاني فيما نحسبه شهادة بشظايا طلقة مدفع خلال معركة حصار الكوت ، تلك المعركة الظافرة الرائعة التي انتهت بهزيمة الانكليز أمام بعض بقايا جيش الأمة الاسلامية ، واستسلام أربعة عشر الف جندي انكليزي وأخذهم أسرى ، وكان الداغستاني رحمه الله قائد المتطوعين غير النظاميين في تلك المعركة وما سبقها ودفن جوار قبر الامام أبي حنيفة ببغداد ، ودفنت معه تلك الهمة الكبيرة العالية النبيلة .

● تجدد الذهول

ولكن انتهاء الحرب العالمية ، وتسلط الجاهلية ، تركا عموم المسلمين في ذهول شديد وحيرة .

---

(٣) تجد الاشارة الى خبر هذا الحزب في كتاب (البغداديون اخبارهم ومجالسهم) لابراهيم الدروبي .

كان الوضع الجديد بحاجة الى رجل يبدأ فيعيد من أفراد المسلمين أمة اسلامية ، ويقودها الى حكم الاسلام ثانية ، بأسلوب يناسب الواقع .

لكن الرياح الجاهلية كانت تصفر صفيرا شديدا في ديار الاسلام الخالية وما هناك من يصرخ بالمسلمين مستنهضا ، فيعلو هتافه على صفيرها .

نعم ، كانت هناك أصوات مخلصة كثيرة في بقاع الاسلام ، لكنها ما كانت تعرف طريق العمل الصحيح ، ولا الصفاء الاسلامي الكامل ، وتتوهم الطريق مقالات تكتب أو مؤتمرات تجتمع فتقرر عودة الاسلام على الورق فحسب ، ولذلك بدت صيحاتهم على ورق الصحف أو المنابر أو في المؤتمرات كمجموعة نغمات نشاز أمام نغمة الأوج الهدارة لنشيد الاسلام الجديد الذي كان المسلمون بشوق الى سماعه .

كان الاسلام بحاجة الى من يعرف طريق العودة الصحيح ، ويفقه أصول العمل الجماعي عند السلف ، فيدق صدره ، ويعلي صوته ليسمعه المسلمون ، ويقول : ها أنا ، فيلتفون حوله ، ويميزون صيحته ، ونبرة تكبيره .

● ادراك الذات

« ها أنا » هذه عرف اقبال رحمه الله حاجة الأمة لها .

انها التعبير عن « ادراك الذات » عنده .

وهي في مثل فترة الذهول تلك ، التي كان يعيشها

المسلمون ، تعني ادراك الطريق الصحيح ، الذي يبدأ من تربية الفرد ، على معاني العقيدة الاسلامية الصافية ، ويتطور الى تجمع له قيادة لها خطة .

وقد صور اقبال ادراك الأمة لذاتها الحقيقية الاسلامية من بعد ذهولها كادراك الطفل لذاته من بعد عجزه أيام طفولته الأولى.

ولأن هذه الأمة تولد من دعوة رجل واحد فقيه ذي همة ، كما قال في ديوانه الذي خصصه لبيان الذات : « تولد الأمة من قلب جليل . »[1] ، فقد تحددت صفة الخطوة الأولى في طريق انتشال الأمة من الذهول وارجاعها الى الاسلام .

انها الخطوة الأولى ، عنوانها : ان يبادر قلب جليل فيدق صدره أمام جماهير المسلمين ويقول : هاأنذا ، على صفاء عقائدي ، وتجرد سلوكي تلحظونه ، فتجمعوا حولي .

أو ، بأحرف اقبال في تصوير هذا البشير النذير حين يستفيق من الذهول :

أرأيت الطفـــل يا ذا البصر
ما له عن نفسه من خبر
ليس تدري اذنه ما النغمـــة
لحنـــه ثورتـــه والضجة
وبعـــين الكون انسانـــا يرى
كل شيء ما عداه أبصرا
بعد لأي طـــرف الخيط بـــدا
بعد ما حلت يداه العقـــدا

---

(١) شطر من ديوان الاسرار والرموز / ١٠٨ .

فـــتراه عينــــــه مستعلنـــــا
فيدق الصدر ، يعني : ها أنا
(أنا) هذي بدء مقصود الحياه
نغمة اليقظة في عود الحياه [1]

هذا هو « المجدد » بالاصطلاح الاسلامي،فالاسلام لا يعرف (أن تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الاسلام منها موقف التابع المتخلف ، ولا كان يكفيه أن يكون هنا وهناك رجال متمسكون بالاسلام في حياتهم الفردية المحدودة ، وتشيع في الحياة الجماعية الواسعة أخلاط شتى من الجاهليـــة والاسلام .

ولذلك كان – ولا يزال – الدين الاسلامي في كل عصر في حاجة الى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره الى الاسلام ، سواء أكان عملهم في ذلك محيطا شاملا أو كان على بعض نواحي الأمر مقتصرا ، وهؤلاء هم الذين يدعون بالمجددين) [2] .

ولأن طريقهم يقتضي البذل ، كان من شروطهم أن يكونوا أبطالا من الشجعان ، اذ أن (الذين لا يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى ، ولا يشجعون على مقاومة الأخطار والمشكلات والذين لا يطلبون في هذه الدنيا الا الراحة والسهولة والرغد ، وهم ينسكبون لذلك في كل قالب ويطاوعون لكل

---

(١) ديوان الاسرار والرموز / ١٣٣ .
(٢) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي / ٢٨ .

ضغط ، لا تجد لهم فعالا يذكر في التاريخ الانساني ، وانما تشكيل التاريخ يكون من شأن الأبطال وحدهم ، وهم الذين قد غيروا أبدا مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم ، وبدلوا أفكار العالم) [١] .

● ها أنا .... يقولها حسن البنا

وكان هذا البطل الشجاع الذي دق صدره وقال : هاأنذا ، هو الامام حسن البنا رحمه الله ، ورفع صوته عاليا معلنا بداية التجمع والمسير سنة ١٩٢٨ ، بعد عشر سنوات كاملات من الذهول الذي أصاب الأمة من جراء نتيجة الحرب العظمى ، وسرعان ما تكاثفت معه تلك الطليعة المؤمنة من عمال شركة قناة السويس فكانت الدعوة الوارثة لجماعات السلف الآمرة بالمعروف .

وكان الأستاذ المودودي يمهد آنذاك ببحوثه القيمة لمثل هذه المسيرة في الهند ، ثم بدأ التجميع فعلا سنة ١٩٣٨ .

وتلقف بعض الميامين هذه الدعوة في بعض البلاد العربية عن الامام البنا ، فكان في كل مكان رائد شجاع تجمعت حوله طليعة ، وبدأو المسير المبارك في السودان ، وسوريا ، وفلسطين ، والعراق والاردن ولبنان

وبذلك رسم هؤلاء القادة ، بريادة الامام البنا ، مع الطلائع المقدامة الذين سارعوا للعمل معهم ، الصورة العملية

---

(١) نحن والحضارة الغربية للمودودي / ٢٥١ .

لأصول فقه العمل الجماعي الاسلامي في العصر الحديث ، وأتاحوا لبلاغة سيد قطب رحمه الله أن تنطق فتصف الطريق الدائم لمسيرة الدعوات .

يدعونا أن نتذكر (كيف وقع هذا الأمر أول مرة !

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله ويقول لها — كما أمر — : انها في جاهلية ، وان الهدى هدى الله ..

ثم تحول التاريخ ... تحول حين استقرت هذه الحقيقة الهائلة في قلب ذلك الرجل الواحد . تحول على النحو الذي يعرفه الأصدقاء والأعداء !

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى .. وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت الى جاهليتها !

وهذا هو الأمر في اختصار واجمال ..

توجد نقطة البدء ، نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب .. في عدة قلوب .. في قلوب العصبة المؤمنة .. ثم تمضي القافلة في الطريق .. في الطريق الطويل .. الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة — فيما عدا بعض الاستثناءات — ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك .. وكما وصلت القافلة الأولى ..

لست أزعم انها مسألة هينة ، ولا انها معركة قصيرة .. لكنها مضمونة النتيجة .. كل شيء يؤيدها .. كل شي

حقيقي ، وفطري ، في طبيعة الكون ، وفي طبيعة الانسان .. ويعارضها ركام كثير ، ويقف في طريقها واقع بشري ضخم ، ولكنه غثاء !

ضخم نعم ... ولكنه غثاء !)[١] .

(ان نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الاسلام .. أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق ، فيشهدوا أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله .. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ، ويطبقون هذا في واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الاعلان العام لتحرير الانسان)[٢] .

(انه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي في الطريق) .

(والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مئة ، والمئة يصبحون الفا ، والألف يصبحون اثني عشر الفا)[٣] .

فهذا هو أسلوب الطلائع في محاولة البعث الاسلامي لتحقيق المنهج الاسلامي ، فالمنهج (انما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر ، تؤمن به ايمانا كاملا ، وتستقيم عليه — بقدر طاقتها — تجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين ، وفي حياتهم كذلك)[٤] .

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة لسيد قطب / ١٩١ .

(٢) في ظلال القرآن ١٠ / ١٩١ .

(٣) معالم في الطريق ٩ / ١١٨ .

(٤) هذا الدين لسيد قطب / ٧ .

ولا بد (من البعث الاسلامي مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث ، وبين تسلم القيادة ، فمحاولة البعث الاسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها)[1] .

وهذه الطلائع ، هي الطلائع الموفقة الفائزة التي سيندم من لم يلتحق بها منذ الآن ، وسيتوجع كما توجع الصحابي ذو الجوشن الضبابي رضي الله عنه حين لم يسلم الا بعد فتح مكة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه الى الاسلام بعد بدر فقال لـــه :

(هل لك الى أن تكون من أوائل هذا الأمر ؟

قال : لا

قال : فما يمنعك منه ؟

قال : رأيت قومك كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، فأنظر ، فان ظهرت عليهم آمنت بك واتبعتك ، وان ظهروا عليك لم أتبعك .

. . فكان ذو الجوشن يتوجع على تركه الاسلام حين دعاه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]) .

وكم من أناس اليوم لا يعدو منطقهم منطق ذي الجوشن ؟ يدعوهم واقع المعركة الاسلامية الى أن يكونوا الأوائل والمقدمة ، والنبلاء ، والقادة ، ورأس النفيضة ، فيأبون الا أن يكونوا مؤخرة .

---

(١) معالم في الطريق / ٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ٤٧ .

وكم من اصبع سيعض ندما يوم يختار الله الطلائع السائرة لاتمام نوره ؟

ولا تزال اليوم في العالم الاسلامي بلاد كثيرة فيها عناصر من الأفراد الدعاة جيدة ، وجمعيات اسلامية متعددة ، وتجمعات لدراسة الحديث النبوي الشريف وكلام السلف ، وطرق صوفية وطلاب دراسات شرعية ، وأحزاب اسلامية انتخابية لا تعتمد طريق التربية ، ولكن ليس في أي من هذه الأحزاب والطرق والتجمعات والجمعيات والعناصر التصميم على سلوك طريق الدعوة التي تتجمع على أساس طاعة لأمير ، وتلح في التربية ، وتخطط لتغيير الواقع الذي يضغط عليها واستبدال حكم اسلامي به. فهذه الجماعات مدعوة ، اينما وجدت ، في شمال افريقيا أو شرقها أو غربها ، أو في منطقتنا هذه ، أو في بلاد الأفغان ، أو جنوب شرقي آسيا ، الى أن يراجع أفرادها أنفسهم ، فيصححوا عقائدهم ان كان فيها نوع بدع ، ويعلوا هممهم ان كان يعتريهم نوع خوف ، ويتخلوا عن الأنانية وحب التزعم ان كان قد ولدهما فيهم طول العمل في تجمعات صغيرة ، ثم يبايعوا حرا يتميز بهم في حركة اسلامية واضحة الهدف التغييري ، متينة التوجيه التربوي ، رصينة الصف التنظيمي .

فاذا بادر مقدام فقال : ها أنا ، فان لأفراد هذه الجماعات أسوة وقدوة في الحوار الشريف بين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام حين أمر الله ابراهيم ببناء الكعبة .

قال ابراهيم عليه السلام :

(يا اسماعيل : ان الله أمرني بأمر .
قال : فاصنع ما أمرك ربك .
قال : وتعينني ؟
قال : وأعينك)[1] .
فهذا هو جواب المؤمنين دوما ، بلا تلكؤ ولا تلعثم
وان الله قد أمر باعادة الحكم الاسلامي .
ويجب أن تكون من الأعوان .
لا تتخلف ، وامض ، وبادر ، وكن وريث اسماعيل .
لا تقعد في بيتك .
لا تسمع نداء مستقبلك الوظيفي والتجاري .
فهنا ، في هذه الاجابة الاسماعيلية رأسمالك الحقيقي .
فان استغربت أسلوب الطلائع ، وأبيت الا فتاوى القدماء ،
فاستمع الى الامام ابن تيمية يشرحه لك ويقول :

(كثير من الناس اذا رأى المنكر ، أو تغير كثير من أحوال الاسلام ، جزع وكلّ وناح كما ينوح أهل المصائب وهو منهي عن هذا ، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الاسلام ، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا) . ثم يقول : (وقوله صلى الله عليه وسلم : « ثم يعود غريبا كما بدأ » : اعظم ما تكون غربته اذا ارتد الداخلون فيه عنه ، وقد قال تعالى : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» .

---

(١) صحيح البخاري ٤ / ١٧٥ .

فهؤلاء يقيمونه اذا ارتد عنه أولئك .

وكذلك بدأ غريبا ولم يزل يقوى حتى انتشر ، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة ثم يظهر حتى يقيمه الله عز وجل كما كان عمر بن عبد العزيز لما ولي قد تغرب كثير من الاسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر ، فأظهر الله به في الاسلام ما كان غريبا [1]) .

• الرواد يصفون الطريق

فان هداك الله ، وكنت في الطلائع ، فاسمع الرواد في العصر الحديث يشرحون لك الطريق .

فأول ما ينبه اليه الامام البنا هو : (وجوب الجد والعمل ، وسلوك طريق التكوين بعد التنبيه ، والتأسيس بعد التدريس) [2] .

ثم شرح ذلك فقال :

(ان كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث :

مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة ، وايصالها الى الجماهير من طبقات الشعب .

ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار واعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين .

ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والانتاج .

وكثيرا ما تسير هذه المراحل الثلاث جنبا الى جنب ، نظرا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨ / ٢٩٧ .

(٢) المؤتمر الخامس / المجموعة / ٢٣٩ .

وحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك. ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة ، أو النتيجة الكاملة ، لا تظهر الا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين) [١] .

وأما الأستاذ المودودي فيدعوك الى التأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لترى كيف (قام ذلك الرجل الوحيد فتحدى الدنيا كلها ، ورفض كل تلك الأفكار الخاطئة والطرق المعوجة التي كانت رائجة في الدنيا ، وعرض بازائها عقيدة من عند الله مخصوصة وطريقة معينة ، وفي مدة قليلة من السنين حول مجرى التيار ، وغير لون الزمان بقوة تبليغه وجهاده) [٢] .

(ان اقامة الامامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله إلا بأن يبذل الجهد المستطاع لافراغ حياته في قالب الاسلام .

ثم اذا لم يكن من الممكن تحقق هذا المقصد الأسمى الا بالمساعي الجماعية ، لم يكن بد من أن تكون في الأرض جماعة صالحة تؤمن بمبادىء الحق ، وتحافظ عليها ، ولا تكون لها غاية في الحياة الا اقامة نظام الحق وادارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية . ولعمر الحق انه ولو لم يكن على وجه الأرض الا رجل واحد مؤمن ، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظـــام

---

(١) المؤتمر الخامس المجموعة/٢٥٤

(٢) نحن والحضارة الغربية / ٢٥٠ .

الباطل ، حينما يجد نفسه وحيدا فاقدا للوسائل اللازمة ، أو أن يحاول التستر وراء الحيل الشرعية ، كالاقتناع بأهون البليتين ، بل الحق انه لا يكون أمامه الا طريق واحد ، وهو : أن يدعو الناس كافة الى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى . فان لم يجب لدعوته أحد ، فان قيامه على الصراط المستقيم ، واستمراره في دعوة الناس حتى يلقى ربه خير له الف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلالة والغواية) [1] .

ولكن هذه الحقائق ذهل عنها الفرديون وظنوا انه طريق خطب ، وصيحات منابر ، وقرارات ومؤتمرات ، وحاول الداعية الاسلامي الكبير شكيب ارسلان رحمه الله تعليمهم الطريق الصحيح فلم يفلح .

يقول رحمه الله في نص ثمين جدا خلال رسالة أنشأها سنة ١٩٣١ ونشرت مجلة (المسلمون) صورتها ، يخاطب أحد أبناء فلسطين :

(تأتيني كتب كثيرة من المغرب وجاوا ومصر وسورية والعراق ونفس فلسطين بلدكم ، مقترحا أصحابها عقد مؤتمر اسلامي أو انتخاب خليفة وما أشبه ذلك . ويكون جوابي دائما : يجب أن نؤسس من تحت . يجب أن نربي الفرد .) .

ثم يتابعفيقول :

(اما ان نعقد مؤتمرا مجموعا من ضعفاء ليس لهم ارادة

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية / ١٨ .

مستقلة وهم لا يقدرون أن ينفذوا قرارا ، فما فائدة ذلك ؟ أتريد أن نجمع اصفارا ؟) [١] .

وهذه كلمات تكشف عن قمة الوعي وعن آخر تجارب الدعاة ، ولكن أصحاب شكيب خذلوه وكانوا أقصر هتما .

ولا زلنا ننظر هؤلاء الخطباء المساكين على منابر الجمعة والاحتفالات يتألمون ، وينادون المسلمين بالعمل والجهاد ، ويختمون خطبهم بمثل قولهم : الاسلام يناديكم ولا يسألون أنفسهم : بأي متصد للزعامة نثق ، وما ثم فيهم الا قائد مقود ، ومتبجح مملوك ؟

انهم جهلوا طريق العمل الصحيح ، فلا تؤدي خطبهم الا الى زيادة آلامهم وآلام السامعين ، ولو علموهم اليأس من قادة اليوم ، وأرشدوهم الى وجوب التجمع والأمر بالمعروف الذي جاء به الاسلام ، والنهي عن المنكر الذي تقترفه الأحزاب والزعامات المملوكة ، لحصل لهم المطلوب الذي يتمنونه ، ولكن ما زلنا نسمع نشيج الجمعات وقرارات المؤتمرات منذ عشرات السنين ، وما ثم الا جمع الاصفار .

انه التأسيس من تحت كما يقول شكيب ، ليس غير .

وانها خيمة التنظيم لا قاعات المؤتمرات .

ونار الأحرار ، لا أنوار الثريات .

تنصب خيمتك في صحراء جاهلية القرن العشرين ، وتضرم نارك ليراها التائهون والمنقطعون فيقصدونها وينزلون خيمتك

---

(٦) المسلمون ٢ / ٣٦٣ .

وتنادي ابنتك لبيني لتزيد لهب النار ، وتعلمها :

يا لبيني أوقــدي طال المدى
أوقدي علّ على النار هدى
أوقدي يا لبن قد حار الدليل
أوقدي النـــار لأبناء السبيل
ارفعي النار وأذكي جمرهـــا
علّ هذا الركب يعشو شطرها
شردي هذا الظلام الجاثمــــا
ارشدي هذا الفراش الهائما
حبذا النـــار بليـــل توقـــد
حبذا المؤنس هذا الموقـــد
حبـــذا عنـــدك هـــذا النُزل
لو حوانا في سفـــار منزل
ما لذا المنزل قد سار الفريـق
انمـــا النـــيران اعلام الطريق
زودينـــا بهيـــام ووجيـــب
زودي يا لبن من هذا اللهيب[1]

(١) لعزام ، من قصيدة اللمعات ، التي الحقها بترجمته لديوان رسالة المشرق لاقبال .